الكوابيس المدرسية لا تزال تطاردني

محمد عطا

لا أريد تخيل ما قد حصل. هل يمكن أن يتكرر معي مرة أخرى؟ في ذلك الوقت، كنت طفلاً ولا أعلم في الدنيا شيئاً. كنت أتعلم، أو بالأحرى لم أكن أتعلم، كنت أجبر على ذلك، فلم أذهب للمدرسة للتعلم أو لحبي للتعلم، وكنت من أكثر المشاغبين بالصف. كنت أتحمل جميع العواقب، ومع ذلك، كنت سعيداً جدّاً لأني أعمل ما أريده، حتى دخلت في أحد المواقف التي لا يمكن تخيلها. دخلت للصف الثالث فتفاجأنا أن الأستاذ شديد جدّاً، والغريب أنه كان هناك قضيب من الحديد مغروز في نصف الواجهة. تساءلت كثيراً عن هذا الأمر، ولم أنتظر حتى اكتشفت بنفسي أن هذا هو أداة العقاب داخل هذا الصف. دخل الأستاذ الشديد الذي سمعنا عنه من الطلبة، وتمنيت أن أتجاوز هذا الصف بشكل سريع، كان جسمه رياضيّاً وكان الواحد منا يساوي أحد أطرافه، زاد الخوف في قلوبنا عندما تحدث بنبرة عالية جدّاً. بعد حصص عدة، أجيب عن تساؤلي عن قضيب الحديد. زميلي الذي يجلس بجانبي لم يحل الواجب في ذلك اليوم، لكنه لم يكن وحده، فهناك ثلاثة طلبة آخرين، طلب الأستاذ من أحد الطلبة الوقوف على الطاولة التي تحت قضيب الحديد، وطلب منه التمسك بقضيب الحديد جيداً، ففكرت أنه سيضربه من الخلف، ولكن المفاجأة عندما طلب من أحد الطلبة إزاحة الطاولة من تحته، فتعلق الطالب ما يعادل ربع ساعة، ليتسنى الوقت لمعاقبة الآخرين.

كرهت المدرسة، ومن ملامح وجهه، شعرت أنه كره الدنيا عندما بدأ يتكرر هذا الأمر يوميّاً، ليس على الواجب، ولكن على أشياء تافهة لم نعلم أنها أخطاء، لأن أحداً لم يبين لنا أخطاءنا، بل يحول السؤال إلى عقاب مباشر. تتابع المدرسون، كل بعقابه، إلى أن وصلت للصف الثامن، فبدأت تختلف معاملة بعض المدرسين، فقد دخل مدرس لا أتذكر أنه رفع يده للأعلى بتاتاً. ومع تعدد وسائل التدريس، والتدريس بطريقة ترفيهية وقصصية، زاد إعجابي بشخصية هذا المدرس الذي قسم لنا الحصة حسب الوقت وبطرق خيالية، فمثلاً، عندما نريد الاستماع للمدرس، كان يعد للرقم ثلاثة ومن ثم نضرب أيدينا على الطاولة، ولا نحركها، وكنا ننتظر هذا المدرس لكي نضرب بشكل جماعي على الطاولة.

لم أكن أعتقد أنني سأصبح مدرساً يوماً من الأيام. دخلت المدرسة، وكان هناك طلبة من جميع الفئات، وسمعت بعض المدرسين يقولون لي: "شد من أول يوم، وكون شديد ولا ترحم حدا". أجبت وبسرعة: هل الحرب بدأت؟ ولم هذه الوصية؟ دخلت إلى أحد الصفوف وأنا أحمل جميع صفات هذا الشخص: المعلم القنوع ذي الخطوات الواثقة، والأب والأخ والصديق. واجهت بعض المشاكل

الصغيرة، وعند التقدم إلى أحد الطلبة لمناقشة خطئه، كان يضع يديه على وجهه! هل يعقل؟، هذا ما شاهدته في صغري، هل ما زال موجوداً؟ أصبحت لدي بعض التناقضات، فهل أعمل بما نصحني به بعض الأساتذة، وأشدّ (أستخدم الضرب)؟ أم أستخدم طرقاً مثلى مما تعلمته؟

لم يكن التعامل مع الطلبة صعباً، الاستمتاع في المهنة ليس صعباً مع تناغم الأفكار. بعد فترة من تعييني كمدرس، انتقل هذا المدرس إلى المدرسة، ولكن ليس كمدرس وإنما كمدير، ساعدني هذا الأمر كثيراً، فقد بدأنا بتغيير معاملة المدرسين مع الطلبة من خلال كثرة الأنشطة اللامنهجية. زاد حب الطلبة للمدرسة كثيراً، مع ارتفاع في المعدلات ومستوى التحصيل لجميع الطلبة، وتمت الاستعاضة عن كل وسائل العقاب بوسائل تعليمية، وبناء علاقات جديدة مع الطلبة وخاصة الأطفال، فنحن المدرسين لا نلاحظ التأثير لدى الطلبة، ولكن ما مر به كل طالب يبقى في ذاكرته لنبني جيلاً واعداً يبني وطناً. "أطفالنا فلذات أكبادنا تمشي على الأرض".

مدرسة كفر عبوش الثانوية

من فعاليات اليوم الختامي لمشروع إحياء الدمى في التعليم.